مقالات أدبية لإزرا باوند

اختارها وقدم لها : ت. س . إليوت

لعل الكثيرين من دارسي الشعر الإنجليزي الحديث يعرفون مدى ما يدين به شعراء هذه المدرسة لإزرا باوند، فهو أبوهم الروحي. أعلن في السنوات الأولى من هذا القرن- عن طريق تعاليمه النقدية وتطبيقه الشعري- الثورة على المدرسة الرومانسية في الشعر، وعلي المدرسة التي سادت إنجلترا طوال القرن التاسع عشر، وقاد حركة أدبية تهدف إلى إرساء قواعد مدرسة كلاسيكية جديدة في الشعر والنقد على السواء. وظهر من أبناء هذه المدرسة شعراء كبار مثل ت.س. إليوت، ونقاد كبار مثل ت. أ. هيوم، الذي يعتبر كتابه "التأملات"(١) بمثابة الفلسفة النظرية لهذه المدرسة الجديدة.

ولا يهمنا هنا أن نعرض لما حققته هذه المدرسة في ميدان الشعر أو النقد، ولكننا إذ نعرض اليوم لهذه المجموعة من مقالات إزرا باوند يهمنا أن نؤكد أهميته البالغة كمعلم وشاعر

استطاع أن يؤثر بآرائه على جيل كامل من الشعراء والنقاد هم الذين نعتبرهم اليوم مدرسة الشعر الحديث في إنجلترا وأمريكا.

والمجموعة التي نعرض لها اليوم صدرت أخيرا عن دار "فابر وفابر" بلندن التي يشرف عليها ت. س. إليوت. وقد قام إليوت بنفسه باختيار هذه المجموعة من المقالات الأدبية وتقديمها وفاء لأستاذه وتعبيرًا عن إيمانه وإعجابه به. فالمعروف أن إليوت كان تلميذا مخلصًا لباوند، وهو الذي أهداه قصيدته الكبرى "الأرض الخراب" قائلاً: "إلى إزرا باوند.. الصانع الأعظم" بعد أ ن ساعده باوند كثيرًا في تحقيق الشكل النهائي لهذه القصيدة التي أصبحت من عيون الأدب الإنجليزي عامة. والحقيقة أن عظمة إزرا باوند لم تنبع من كونه شاعرًا كبيرًا أو ناقدًا كبيرًا، وإنما كانت قيمته الأساسية في كونه "معلمًا" أولاً وقبل كل شيء. فلم يكن يشغل نفسه فقط باكتشاف أفضل الوسائل الفنية لكتابة الشعر، بل كان اهتمامه الأكبر ينصب على كيفية "تعليم" غيره من الشعراء ما اكتشفه من خلال تجاربه وتأملاته الشخصية.

ولم يكن يكتفي بتعليم غيره هذه المبادئ والأسس التي اكتشفها وإنما كان يصر على أن يطبقها الموهوبون من تلاميذه وحواريه.. ولذلك كان يلبس دائمًا لباس المعلم الذي يفترض

الغباء فيمن يسمعونه فيظل يكرر ويؤكد القول حتى يستطيع التلاميذ استيعاب ما يقول، كما أن هذا الإصرار الشديد على إيصال تعاليمه إلى الآخرين كان يمثل رغبة باوند الشديدة في أن يحيط نفسه بجو أدبي فيه عقليات في مثل ذكائه وقدرته على الخلق، ومن هنا كان باوند نافد الصبر قاطع الأحكام دائما.

ويقول إليوت في مقدمته لهذه المجموعة من مقالات "باوند" إن النقد الأدبي الذي كتبه "باوند" هو أهم نقد من نوعه في القرن العشرين، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل أهمها أن ما قاله وكتبه عن فن الكتابة عامة، وفن كتابة الشعر خاصة، له قيمة مطلقة يمكن أن يفيد منها دارسو الأدب في كل زمان ومكان.

وثانيًا أن باوند قال أشياء كثيرة في النقد الأدبي تتعلق بالحقبة التي كان يعيش فيها وكتب لها على وجه الخصوص، ومن هنا يكشف لنا عن حقيقة هذه الفترة الحرجة من تاريخ الشعر الإنجليزي.

وثالثا لأنه لم يوجه الانتباه لشعراء بعينهم فحسب، وإنما كشف النقاب عن فترات بأكملها من الشعر كانت شبه مجهولة، ولا يستطيع الباحث الأدبي تجاهلها في المستقبل بعد أن قدمها باوند.

ويقول إليوت أيضا في مقدمته: إنه من الضروري أن نقرأ شعر "باوند" حتى نستطيع أن نفهم أعماله النقدية، كما أنه من الضروري أن نفهم أعماله النقدية حتى نستطيع أن نفهم شعره.. ولهذا السبب آثرت ألا أعرض لجميع ما ورد في هذا الكتاب من مقالات..

أولاً - لاستحالة ذلك في هذا المجال .

وثانيًا - لأن بعضها يتعرض لشعراء معينين من الشعراء القدامى الذين أعاد باوند بعثهم في عصره، ولذلك يلزم التنويه بهم وبأعمالهم مما يضيق به المجال.

وقد اخترت مقالا بالغ الأهمية في هذه المجموعة هو مقال "كيف نقرأ؟" لكي أعرض له بالتفصيل، وذلك لأن المقال يتحدث عن مبادئ عامة في الأدب واللغة مما يسهل على القارئ استيعابه دون الرجوع إلى الإشارات التي يوردها باوند في كتاباته إلى الآداب الأوروبية المختلفة، ويكثر منها.

وهذا المقال يندرج تحت القسم الأول من الكتاب الذي أعطاه إليوت عنوانا عاما هو "فن الشعر" ويحتوي إلى جانب هذا المقال على مقالات عن "الفنان الجاد" و"رسالة المعلم" و"وسيلة الاتصال المستمر بالجماهير" وغيرها.

أما القسم الثاني من الكتاب فقد أطلق عليه إليوت عنوان "التراث" وهو يحتوي على مقالات مختلفة عن شعراء التروبادور، ثم فصلا عن جحيم دانتي وثاني عن شعراء عصر النهضة، وثالث عن الترجمات الإنجليزية لشعراء الإغريق وخاصة هوميروس، ورابع عن الشاعر الرمزي الفرنسي جيل لافورج وخامس عن زعيم النقد الرمزي ريمي دي جورمو.

ولنعد الآن إلى مقال "كيف نقرأ؟"..

يبدأ باوند مقاله قائلا إن مناهج دراسة الأدب في المدارس والجامعات كانت - في أوائل هذا القرن- ولا تزال غير سليمة، بل غير صالحة للوصول إلى نتائج مفيدة. وهو يعتقد أن السبب في ذلك يرجع إلى احتقار عامة الناس "للدراسة" الأدبية: Scholarship كما تعود أيضا إلى نفور القراء عامة من الكتب الجادة، وتظاهر الكثيرين منهم بالعلم ببواطن الأمور في حين أنهم لا يعرفون شيئا في الحقيقة ولذلك فإن أشد ما نحتاج إليه لكي نحقق الفائدة المرجوة من دراسة الأدب هو أن تقوم هذه الدراسة على "منهج" من نوع معين. ويقترح باوند منهجًا يقول إنه بسيط في جوهره ولكنه المنهج الوحيد الذي يستطيع أن يكسب الإنسان تنظيمًا محددًا لأفكاره بالنسبة للأدب.

يقول باوند إنه في كل عصر من العصور الأدبية يظهر عبقري أو اثنان وهذا العبقري يكتشف شيئا جديدا يخرج به عن نطاق التقاليد الأدبية الشائعة في ذلك العصر، وهو يعبر بطريقته الخاصة عن هذا الشيء الجديد، الذي قد يكمن في بيت واحد أو بيتين أو في أعماله جميعا. وبعد ظهور العبقري يأتي مئات من التلاميذ والمقلدين.

ومن هنا ينبع المنهج السليم لدراسة الأدب والشعر خاصة ، فما على الدارس أو "المعلم" ألا أن يختار "عينات" من أعمال هؤلاء العباقرة الذين ظهروا على مر العصور الأدبية والذين استطاعوا أن يقولوا شيئا جديدا، فيدرسها ويكون عن طريقها فكرة مكتملة عن الأدب.

وليس المفروض أن تكون الجدة في هذه الأعمال جدة سطحية، وإنما يجب أن يحتوي العمل "الجديد" على أصالة وعمق يتبعه تغيير جذري في التقاليد الأدبية.

وهذا المنهج يساعد دارس الأدب إذ يجعله أوسع إلمامًا أكثر مما لو كان يقرأ كيفما اتفق دون نظر إلى أهمية من يقرأ لهم في التاريخ الأدبي ومدى مساهمتهم في عالم الأدب.

ويضيف باوند أنه لا حاجة بنا إلى القول بأن الدارس لمجموعة من أعمال هؤلاء العباقرة لا يأخذ في اعتباره أي هدف اجتماعي أو سياسي خارج العمل الفني.. ومن الواضح أن هذا المنهج يختلف اختلافا كبيرا عن غيره من المناهج التي تتظاهر بأنها مناهج علمية وتحاول أن تعالج الأدب بطريقة لا تتفق وطبيعته كأدب.

وبعد ذلك يقدم باوند عرضا موجزا للغاية لتاريخ دراسة الأدب في ثلاث من الأمم الكبرى فيقول:

"إن دراسة الأدب، أو ربما المورفولوجيا، سمح بها في ألمانيا في الفترة بين عامي ١٨٨٠ - ١٩٠٥ وذلك لكي ينغمس الأساتذة الألمان في هذه الدراسة فيبتعدوا عن شئون الحياة العامة، وشئون الدولة بنوع خاص. ثم قامت دراسة الأدب في أمريكا لتقليد الجامعات الألمانية، فقد كان لألمانيا "تقاليد جامعية عظيمة" وكان يهم الأمريكيون أن تكون لهم نفس التقاليد بل ينبغي كذلك أن يتفوقوا عليها، أما دراسة الأدب في إنجلترا فقد كان يسمح بها في أكسفورد لأثرها الطيب في تهذيب الطلبة!!".

ولا يخفى على القارئ السخرية المريرة التي تكمن وراء هذه الكلمات.

ويتبع باوند هذا العرض الموجز لدراسة الأدب في الجامعات بتعريف وظيفة الأدب وهي كما يعتقد حث البشرية على الاستمرار في الحياة بمعنى أنه يغذي العقل، ويريحه من التوتر، ويدفع الإنسان إلى الحياة السليمة. ثم يتساءل باوند: هل للأدب وظيفة في المجتمع؟

ويجيب عن هذا السؤال بالإيجاب، ولكنه يؤكد أن هذه الوظيفة ليست إغراء الناس أو إرغامًا لهم على قبول أفكار معينة ورفض أفكار أخرى مناهضة لها. وإنما يجب أن تكون وظيفة الأدب الاجتماعية هي توضيح وتقوية "جميع" الأفكار والآراء بمعنى أن الأدب يحافظ على "نظافة" وسلامة مادة الفكر نفسه، فباستثناء الفنون التشكيلية لا يستطيع الفرد أن يفكر ويوصل أفكاره دون اللجوء إلى استخدام الكلمة، ومن هنا يقع على عاتق الأديب مهمة استخدام هذه "الكلمة" استخداما سليما ودقيقا وواضحا، والأديب عندما يخفق في استخدام اللغة، أي حين يخفق في صب أفكاره في إطارها اللغوي الدقيق، يتهاوى الجهاز الفكري للفرد والمجتمع بأكمله.

وقد علمنا التاريخ على مر العصور هذا الدرس. فقد علمنا أن حضارة بأكملها قامت على أكتاف هوميروس، كما قامت الحضارة المقدونية، ونمت على أكتاف المقدونيين ، وبفضلهم

انهارت. وليست المشكلة هنا مشكلة بلاغة لغوية فقط، أو عدم دقة في استعمال اللغة وإنما هي مشكلة عدم الدقة في استخدام المفردات.

فما كسبه عصر النهضة من الفحص المباشر للظواهر الطبيعية خسره- جزئيا- في عدم وصفها بتعبيرات دقيقة. أما العصور الوسطى فرغم قلة حصيلتها من الكلمات، فقد كانت أكثر حرصا في تعريفها للأشياء، فلم تكن تصف بندقية مثلاً بأوصاف تكاد تنطبق على عملية "الانفجار" وهكذا.

أما الأديب ، فطالما كان عمله دقيقًا، أي صادقًا بالنسبة للنفس الإنسانية وطبيعة الإنسان كما هو دقيق في وصفه لهذه الأشياء فإنه يضمن لنفسه الخلود، ويصبح عمله "نافعًا" أي أن مثل هذا العمل يحتوي على دقة ووضوح في الفكر ليس فقط لصالح القلة من الأدعياء أو "محبي الأدب" وإنما يستطيع أن يؤثر بسلامة أفكاره، على الدوائر غير الأدبية وفي مجالات غير مجالات الأدب أي في الحياة والمجتمع بشكل عام.

ويتضح مما سبق أن باوند يعتبر اللغة عنصرًا أساسيًا ومهما من عناصر الأدب الجيد، أو الأدب على الإطلاق فهو يقول إن الدقة في استخدام اللغة استخداما سليما من أهم الوسائل التي

تعيننا على إيصال الأفكار.. أما بالنسبة لدراسة الأدب على وجه الخصوص فلابد من دراسة الأعمال التي استخدمت فيها اللغة استخداما سليما، إذ أن "الأعمال الأدبية العظيمة لا تعدو أن تكون لغة محملة بالمعنى إلى أقصى درجة ممكنة" وعندما ندرس تاريخ الأدب نجد أن تحميل اللغة بالمعنى يحدث على درجات مختلفة باختلاف مستويات المنشئين فهناك درجات من الأدباء استخدموا اللغة استخداما معينا تبعا لمكانتهم في الكتابة الأدبية، ونستطيع تفصيلهم فيما يلي :

١ - المكتشفون ، وهم تلك الطائفة من الأدباء الذين أدخلوا أنواعا معينة أو أنماطا معينة من القافية مثلا، أو أي أسلوب جديد في الكتابة الأدبية.

٢ - كبار الأدباء The masters وهي طبقة قليلة للغاية ونحن نطلق هذا الاصطلاح على المكتشفين الذين يستطيعون فضلاً عما اكتشفوه من وسائل أدبية جديدة، أن يجمعوا وينظموا عددًا كبيرًا من اكتشافات من سبقوهم فيصبوها في وحدة واحدة جديدة بمعنى أنهم يهضمون قدرًا كبيرًا من "المادة" الأدبية وطرق التعبير ثم ينجحون في أن يصبغوا هذا كله بشيء خاص بهم نابع من موهبتهم الفردية.

٣ - المقلدون : وهم الذين يسيرون على نهج المكتشفين أو كبار الأدباء وإنتاجهم عادة أقل قيمة من إنتاج الفئتين السابقتين.

٤ - تلك الطائفة التي تمثل العدد الأكبر من الأدباء في كل عصر ومكان وهم الذين ينتجون أدبا جيدا على نحو ما في حدود الفترة والبيئة التي يعيشون فيها. وهم لا يضيفون إلى التراث الأدبي الكثير من روحهم الفردية ولا يغيرون إلا القليل من التقاليد الأدبية السائدة.

٥ - أما الطائفة الأخيرة فهي طائفة كتاب "المودات" الأدبية التي تشيع وتكتسب شعبية زمنا ثم لا يلبث إنتاجهم أن يختفي مخلفا وراءه الإنتاج الأدبي الأكثر أصالة.

والمنهج الذي يقترحه باوند لدراسة الأدب هو ببساطة أن يلم الدارس بكتابات الفئتين الأولى والثانية من الكُتاب الذين سبق ذكرهم، فيستطيع أن يحكم من الوهلة الأولى على قيمة أي عمل فني أو أدبي يقرؤه.